امرأة وشيطان

للأستاذ علي محمود طه

[من إحدى قصائد ديوان
الشوق العائد الذي يصدر قريباً]

ودنا الليلُ ورنّت صدحةٌ … نبّهته حين لا يبغي انتباها
وإذا مقصورةٌ من حوله … خالها تنبضُ بالروح دماها
وقفتْ غانيةٌ في بابها
قد تعرّتْ غيرَ فضلٍ من حُلاها
ثم نادت : يا « أحبايَ انهضوا
واغنموا الليلةَ حتى منتهاها »
وتلاشى الصوتُ لا رجعَ صدًى
لا ولا ثَمّ مُجيبٌ لنداها
فعرتها رِعدةٌ ، فالتفتتْ ، … فرأته ، فتلقّاها وِجاها
أبصرتْ وجهاً كوجه المسْخِ لم
يتقنّع ، شاهَ هذا الوجهُ شاها
ورأتْ كفّيه يندى منهما … أرَجُ الزهرِ فأجّتْ نظرتاها
عرفتْ ما اجترحته يدُهُ … أو لا يعرفُ من داس حِماها ؟
يالهذا المسخ ! دوّتْ ومشتْ … صيحةٌ يُنذر بالويل صداها
فانثنى الشيطانُ عنها صارخاً … أتراها تتحدى ؟ من تُراها ؟
فبدتْ في شفتيها آيةٌ
من مُبين السحر ، أوما نحاها
فدنتْ ترمقه فاختلجتْ … عينه ؛ حين أشارت بعصاها
بُدّلتْ تلك العصا جمجمةً … زِيعَ لمّا شرعَتْها فاتّقاها
هي من مَلْكه جنّ من نُصب … يخترمْه بالمنايا عجراها
فتنحّى غاضباً مبتئساً … وتنحّتْ والأسى يُلجِمُ فاها
وسجى بينهما الصمتُ الذي … يتغشّى الأرض إن خان رداها
والتقتْ عيناه فستروحه … راحةٌ من قبلها ما عرفاها
عرفتْ من هو فاستخذتْ له … ورأى من هيَ فاستحيا قُواها
قال : أختاه اغفري لي سطوةً … اشتهتْ كلَّ جمالٍ واشتهاها
واغفري لي شِرّةً عارمةً … في دمي ، لو أتأبّى ما أباها
يا لهذا الدمِ ! ما عنصرُه ؟ … كلُّ ما في النار من وقد لظاها !
فأجابتْ : زهراتي رُدَّها … إنْ تقُلْ حقّاً ولا تبغِ أذاها
قال : لا أذكرُ إلا حلُماً … لحظةً ضلَّ بها عقلي وتاها
أأنا من تتخطّى قدَمي … مسبحَ الشمس فيربدُّ ضحاها
أأنا من يطفئُ النجمَ في … وأردُّ الارضَ غرقى في دُجاها
وتمسُّ القممَ الشمَّ يدي … فيرى منحدِراً لي مُرتقاها
وأجيءُ الارضَ من محورها … فإذا بي يتدانى قُطُباها
أأراني عاجزاً عن دَرْكِ ما … تتمنّى امرأةٌ ؟! عزّتْ مناها !
آهِ ما أضعفَ سلطاني وما … كنتُ إلاّ بغروري أتباهى !!
قالتِ : الآنَ سلاماً زائري
ورضى نفسيَ إنْ رُمتَ رضاها
أيها الشيطانُ ما أعظمَ ما
قلتَه ، ما قلتَ لغواً أو سفاها
زهراتي تلك ، ما كانت سوى
شهواتٍ جمْعيَ الطاغي عماها
قهرتني واستذلتني بها … غيرةٌ ينهشُ قلبي عقرباها
وأنانيةُ أنثى لم تُطِقْ … فاتناً تملكه أنثى سواها
قد صنعتَ الحقَّ قد عاقبتني … فارحمِ المرأةَ في ذُلِّ هواها
فدنا منها فألفتْ وجهه
غير ما كانَ ، لقد ألفتْ أخاها !
قرّبتْ بينهما روحُ الأسى … فاجتبتْهُ بعد حقدٍ واجتباها
واستهلّتْ دمعةٌ من عينها … دمعةٌ رفّتْ وشفّتْ قطرتاها
ضُمّنتْ كلَّ عذابٍ وضنًى … كلُّ ما في النفس من شتّ أساها
ورآها فتندّتْ عينُه … رحمةً ، فاحتال يُخفي من بكاها
وبكى الشيطانُ ! يا لامرأةٍ
أبكتِ الشيطانَ لمّا أن رآها !!

علي محمود طه